

الأستاذ: نورالدين سعيداني

محاضرة في مادة الشعرية العربية- السنة الثانية: دراسات أدبية-

مفهوم الشعر عند صلاح عبد الصبور

لم يكن صلاح عبد الصبور شاعرا كبيرا فحسب بل كان صاحب رأي في الشعر وما يحيط به من قضايا ومشكلات، وقد حظيت كتبه النثرية بالعديد من الملاحظات والإشارات النقدية ، غير أن كتابه "حياتي في الشعر" يعد في نظر النقاد الكتاب الأساس الذي يمكن أن نستمد منه مفهومه للشعر.

1 هدف الشعر عند صلاح عبد الصبور :

يرى صلاح عبد الصبور أن الأديب إنسان اجتماعي واع منفعل بالحياة، ثم هو من بعد ذلك معبر دافع ناشط في مجاله الكلامي، ويقصد بـ"اجتماعي" أن يعيش الأديب واقعه بصراعاته الحقيقية لا أن يتخيله من خلال نماذج عالية من الأدب الواقعي أو من خلال نظرية فلسفية جاهزة..." فهدف الشعر عنده هو الإنسان، والعملية الشعرية هي عملية معرفة النفس، ومن ثم فإن كل شعر فهو ذاتي بالضرورة، وقد توقف عبد الصبور طويلا عند جملة سقراط الشهيرة: "إعرف نفسك" أي معرفة الجذور التي تنتمي إليها وهي الجذور البشرية الممتدة في ذاتك المفردة، وعليه فليس هناك شعر ذاتي وشعر موضوعي، وهو يؤسس هذا الفهم الرحب على إدراكه بأن تاريخ المعرفة الإنسانية ليس سوى تاريخ هذا التأمل الإنساني في ذاته

2 تشكيل القصيدة عن عند الصبور:

يولي عبد الصبور أهمية لمسألة التشكيل في الشعر فالقصيدة الناجحة لیت مجرد مجموعة من الخواطر والصور والمعلومات، ولكنها بناء مندمج الأجزاء منظم تنظيما صارما فهو يؤمن بوجود دور العقل في القصيدة بجوار عناصر الوجدان والإلهام والقصيدة تمر عنده في مسيرة خلقها بثلاث مراحل: الأولى هي مرحلة الوارد مستعبرا التعبير الصوفي الذي يرد إلى الذهن، وهنا يؤدي الإلهام دورا كبيرا، إنها مرحلة إشراقية يقتنص فيها الذهن خاطرة أو رؤيا فتستغرق قلبه كليا، والمرحلة الثانية هي القصيدة كفعل إنها بتعبير الصوفيين مرحلة التلوين والتمكين حيث يستعين الشاعر برموز الكلام ليصف ذاته وتحقق بالتأمل والتحديق في الذات الممتلئة بالرؤى والمعارف والخواطر قصد اكتشاف الحقيقة والتعبير عنها، والمرحلة الثالثة مرحلة عودة الشاعر إلى حالته العادية ليعيد قراءة ما اكتشف وما فعل. وهي مرحلة وعي كامل تتشكل فيه القصيدة تشكيلا فنيا..

واضح من هذا التصور أن الموقف المادي والموقف الديني الصوفي ما هما إلا إجابتان ضمن إجابات ممكنة لنفس السؤال الوجودي المستنبط من الواقع المعيش الذي عاشه صلاح عبد الصبور. فالواقع المصري ومن خلاله الواقع

الإنساني لم يتغير، لذلك لم تتغير الأسئلة التي يثيرها. وما يمكن أن يتغير مرات متعددة، هو نظرتنا إلى هذا الواقع وما نقترحه من حلول لإشكالاته وإجابات على أسئلته.

ويستمد صلاح تصوره عن التشكيل من فن التصوير أساسا، كما يستمد من تصور نيتشه للمأساة اليونانية، فهذه المأساة كما يراها هذا الفيلسوف توازن بين الديانة الديونيزيوسية التي تقدس النشوة وتمجد اللذة، وتطلق كل القوى الحية في الإنسان، وبين العبادة الأبولونية التي تقدس العقل وتحترم التصميم والبناء، فالقصيدة الشعرية تفتقر بعد مرحلتها الوارد والفعل إلى تأمل واع قصد تشكيلها تشكيلا فنيا يتميز بخاصيتين أولاهما: الذروة الشعرية: وتعد حسب صلاح "محك الكمال في بناء القصيدة". ويختلف التشكيل باختلاف أماكن وجودها في أول القصيدة أو في وسطها أو في آخرها. وثانيتها: التوازن بين العناصر الشعرية المختلفة إيقاعا وتركيبا ودلالة.

3 - مفهوم الشعر:

"الشعر صوت إنسان يتكلم مستعينا بمختلف القيم الفنية لكي يكون أصفى وأنقى من صوت غيره من الناس، فهو يستعين بالموسيقى والإيقاع والصورة والذهن والخيال. وكل هذه الأشياء مجتمعة تجعل لصوته هذه الفاعلية التي يستطيع بها في كلماته أن ينقل قدرا من الحقيقة الإنسانية التي يحسها هو منطبعة عليه إلى غيره من الناس".

نستخلص من هنا ثلاث خصائص تحدد ماهية الشعر:
الشعر صوت إنسان يتكلم.
نقل الحقيقة الإنسانية التي يحسها الشاعر إلى الناس.
توسل قيم وأدوات فنية لكي يكون الشعر أصفى وأنقى.

- الشعر صوت إنسان يتكلم:

لا يقصد صلاح عبد الصبور هنا الصوت بمفهومه الفيزيقي المقابل للصمت، وإلا سيكون شيئا مبتذلا. إذ كل ما يفوه به الإنسان هو صوت، وإنما يقصد صوتا متميزا له معنى متميز يصدر عن إنسان يتكلم. والكلام ضد الثثرة، فعامة الناس لا تتكلم وإنما تثرثر، وفي ثرثرتها تتناقل أفكارا مشتركة عامة تحجب الحقيقة الإنسانية الوجودية وتتجاهلها. أما الشاعر بوصفه إنسانا واعيا بذاته وبوجوده، فيحس هذه الحقيقة وينقلها إلى غيره من الناس.

. **المقابلة الإنسانية** تأثر صلاح بالفلسفات الميتافيزيقية عامة، والوجودية منها بشكل خاص فهو يرى أن "الوجود هو المعطى الأول للإنسان" وهو مهدد بالعدم. وبين الوجود والعدم، بين منبع النهر ومصبه، يعيش هذا الإنسان حياة مليئة بالشروع والآلام "خالية من الحرية إلا تحت مستوى الضرورة"، الشيء الذي يحول الأرض إلى جحيم، وحياة الإنسان إلى عذاب. وقد سعى الإنسان منذ القديم إلى إعطاء معنى لحياته متوسلا الدين والفلسفة والفن "فالنبي والشاعر والفيلسوف. إذن. أصوات شرعية، وشرعيتها تشمل كل ألوان الحياة الإنسانية بغية تنظيمها وتخليصها من فوضاها وتنافرها. ومجال رؤيتهم هو الظاهرة الإنسانية في زمانها الذي هو الديمومة، وفي مكانها الذي هو الكون، وفي حركتها التي هي التاريخ".

إن الظواهر الإنسانية التي تحدث عنها صلاح عبد الصبور ليست ظواهر مجردة، لا ولا هي مستقاة من واقع آخر غير واقعه المصري الذي يعيشه يوميا بانتصاراته وانكساراته، ويرفض عكس ذلك. يقول: "لو سألت أحدهم وهو آمن مبتهج النفس . لماذا أنت واقعي؟ . لأجاب : لأن المسرح للأدب الواقعي ... وأنا أحب التمثيل. ولو سألته: هل استبصرت بكفاح العامة في سبيل امتلاك الحياة؟ قال: وما حاجتي وقد قرأت لفلان وفلان ، أما نحن ، فقد ألقينا بقلوبنا في المعركة، معركة أحباب الحياة، وثللنا بانتصاراتها وبكيننا انكسارها. وكان شعرنا سكرنا وبكاءنا، ولا علينا من النماذج والتقاليد...إننا نتنفس الحياة بشغف ومرارة ونهدم ونبني ونبشر ونجدف، وقد يمسننا الشعر بجناحه فنلتهب".

واضح من هذا القول أن الشاعر والفيلسوف والنبي لا ينظرون إلى الواقع نظرة أحادية، وإنما ينظرون إليه نظرة شمولية كلية يتداخل فيها الذاتي والموضوعي، والواقعي والميتافيزيقي، والحياة والموت، والأمل واليأس...وهذه النظرة راجعة إلى أن العالم ناقص، وكل من هؤلاء يحمل بين جوانبه شهوة لإصلاحه، لكن الشك والقلق يلزمهم، الشيء الذي يسم حياتهم بالقلق واليأس الأبديين، إلا أنه ليس يأسا أو قلقا تشاؤميا، إنه يأس ناتج عن إحساس بالمسؤولية ووعي بها .

- اللغة الشعرية:

أو الوسائل الفنية التي يتوسلها الشعر لكي يكون أصفى وأنقى، وصلاح يفرض قوانين اللغة الشعرية القديمة وأعرافها. فهو يعد من بين الذين قرأوا إليوت وتأثروا بجسارته اللغوية، وقدرته على تكييف كلمات الحديث اليومي وتطويعها قصد إدراجه في السياق الشعري. ويرجع هذا التأثير إلى طبيعة اللغة العربية التي تحولت على الرغم من غناها المعجمي الدال على المدركات الحسية والوجدانية، بعد خمسمائة سنة من التخلف الحضاري إلى لغة موحشة غريبة " لا تصلح للاستعمال بحكم الذوق الفني" ، الشيء الذي حولها إلى لغة فقيرة. وقد زاد من فقرها تعفف اللغة الشعرية من استخدام الألفاظ المتداولة حتى ولو كانت فصيحة بدعوى سوقيتها. وقد دعا صلاح عبد الصبور إلى تجاوز هذه النظرة، والتصرف في اللغة بوصفها كتزا كما تصرف فيها القدماء دون تمييز بين المتداول وغير المتداول. واستخدام أي لفظ منها ما دام صالحا للتعبير عما يراد قوله. ولن يتم ذلك في نظره إلا بمعاودة النظر في التراث العربي قصد إدراك غناه، وترويض الألفاظ الجديدة لإدخالها في السياق الشعري.

وقد تعرضت محاولاته الشعرية في هذا السياق لانتقادات كثير من النقاد بدعوى التفاهة والركاكة..

- توظيف الأسطورة:

ينظر صلاح عبد الصبور إلى الأسطورة بوصفها "تعبيرا عن الذات الإنسانية في وحدتها وجوهرها". ويتوسلها بالإضافة إلى تقنيات أخرى كالثقافة الشعبية والتاريخ للتخلص من الجزئية والظرفية، والارتقاء بشعره إلى مستوى المطلق، وإضفاء نبرة موضوعية عليه. إلا أن معظم الشعراء في نظره أساؤوا استخداما لاكتفائهم بمحاكاة الشعر الأوربي. في حين أن الأسطورة ليست مقصودة لذاتها، وإنما هي وسيلة لتعميق النص وفتحه على

تجارب إنسانية غير شخصية. وهذا يقتضي تفكيكها إلى عناصرها الأولية، وانتقاء ما هو صالح للتوظيف دون أن يكون بارزا على السطح الظاهري للقصيدة. وبغير هذه الطريقة يتحول النص إلى ركام من المعارف تفتقر إلى شروح وهوامش وإطلاع واسع على حقول معرفية متعددة لفهمها. وإنما حاول فهم واقعه وتحديد أسئلته الجوهرية الذاتية والاجتماعية بغية البحث لها عن أجوبة ممكنة، مؤمنا في ذلك بأن الأفكار المجردة أو الاهتمام السياسي المحدد لا يستطيعان أن يشكلوا عملا فنيا دون الاستناد إلى قيم جمالية بلاغية .